الفصل الأول

عبد الرحمن بن خلدون

(٧٣٢/ ٨٠٨هـ/١٣٣٢- ١٤٠٦)

هو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن محمد بن محمد بن خالد بن الخطاب، ولد بتونس (المدينة)، وتلقى عن أبيه وعن بعض علمائها القرآن الكريم حفظاً وتفسيراً، ثم الحديث والفقه واللغة والنحو والشعر، وفي السادسة عشر من عمره كان على إلمام بكل العلوم الدينية واللغوية، ثم درس المنطق والفلسفة[1]. وعمل بحاشية سلطان مراكش أبي الحسن المريني، وتولى ديوان الرسائل، ثم عين قاضياً في مصر سنة ٧٨٤هـ، ثم عمل في التدريس، وترك التدريس، ليتولى القضاء سنة ٨٠١هـ، وكان على رأس المفاوضين لتيمورلنك بتكليف من الملك الناصر خرج ابن الملك الظاهر برقوق، أهم مؤلفاته على الإطلاق - لمقدمة- وهي الجزء الأول من كتابه المشهور (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، فضلاً عن كتب مختلفة في الحساب والمنطق والتاريخ.

يعد ابن خلدون مؤسس فلسفة التاريخ دون منازع، كما أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، فضلاً عن كونه مؤسس علم

الاجتماع على أسسه الحديثة، والفضل يعود له في وضع قوانين العمران البشري، وكان ذلك في القرن الرابع عشر الميلادي. والتاريخ عنده نوعان، التاريخ الظاهر، وهو كل ما دوّن من الأحداث وأخبار الأمم والشعوب الماضية، والتاريخ الباطن وهو يقصد (حكمة التاريخ = فلسفة التاريخ)، ولا بأس أن نكرر قول ابن خلدون في تعريفه للتاريخ:

"التاريخ في ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيام والدول والسوابق في القرون الأول ... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيلٌ في الحكمة عريق، جديرٌ أن يعد في علومها وخليق"[٢].

ومن الجدير بالملاحظة أن الفقرات الأخيرة من التعريف تدل على إشارات واضحة لفلسفة التاريخ، الأمر الذي أوضحناه تفصيلا في الفصل الأول، لقد نظر ابن خلدون إلى حركة التاريخ من خلال الحضارة، فالحضارة عنده كائن حي[٣]، تولد ثم تنمو ثم تصل إلى مرحلة النضوج (الشباب)، ثم تبدأ بالاضمحلال ثم تهرم، فتموت الحضارة بعد أن تفقد طاقتها الإبداعية.

والحضارات تتعاقب دورياً على الدول (كدوران العجلة) تخضع للحتمية التاريخية، من خلال مراحل نموها الثلاث (النشأة، والازدهار، والانحطاط) وحركة الحضارة تلك، تمثل انتقال من البداوة إلى الحضارة عبر الدولة الواحدة، حيث تتطور الحضارة من مرحلة لأخرى، ففي مرحلة البداوة وهي المرحلة التأسيسية تتصف بمقومات حضارية بسيطة، كما هي الحال في بساطة الحياة في المجتمع البدوي، ثم تبدأ في إستحصال مقومات الحضارة تدريجياً من خلال الاستقرار وقيام الخدمات والعمران البشري الذي هو عامل قيام الحضارة وما ينتج عنها، حتى تتمكن من الدخول إلى المرحلة الثانية من عمرها (مرحلة التحضر أو التطور)، وتمثل شباب الحضارة، وعندما تبلغ الحضارة قمتها، تبدأ بالذبول ثم تنهار وتسقط، وهكذا الحال مع جميع الحضارات الأخرى[٤]. وهكذا تصور ابن خلدون عملية نشوء الحضارة من خلال مراحلها الثلاث (بداوة- تحضر-تدهور)[٥]، ثم تنشأ، حضارة جديدة على وفق مبادئ جديدة، وفي المكان نفسه، وتمر بمراحل نمو الحضارة الأولى نفسها، ثم تسقط، وهكذا تدور الحضارات على الدول كدوران العجلة.

١. عوامل قيام الحضارة عند ابن خلدون:

أ. الاجتماع الإنساني أو العمران البشري:

العمران البشري عند ابن خلدون هو الاجتماع الإنساني أو التجمع (تجمع الناس للسكن في مكان ما) وهذا التجمع يولد القرى ثم المدن، ويرى ابن خلدون أن الإنسان لا يستطيع العيش بمفرده حيث يقول:

"الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء أي الفلاسفة عن هذا بقولهم، الإنسان مدني بالطبع، أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران"(٦).

إن أفضل مناطق الاجتماع الإنساني هي ضفاف الأنهر والمناطق السهلية، للقرب من المياه وسهولة التنقل، وبعد أن يحصل التجمع تتولد الخدمات المختلفة، والزراعة هي عامل الاستقرار لدى الإنسان وارتباطه بالأرض لتوفير مقومات حياته، ثم تتولد الخدمات الأخرى كالصناعة والتجارة والعمران، ولا يمكن أن تكون حضارة أو مدنية دون التجمع الإنساني(٧). أما أسباب التجمع، فهي لإشباع حاجة الإنسان من الغذاء، ولتوفير الملبس والمسكن له ولأسرته، ويتم ذلك عن طريق التعاون وتقسيم العمل